إلى بلد المحبوب.. الدار البيضاء

المدينة

الجغرافية تدخل التاريخ وتخرج منه لتتسكع لبعض الوقت على هامشه متفرجة على مدينة أخرى تصنع لنفسها تاريخاً. المدينة امرأة تعشق النظر طويلاً إلى جسدها فى مرآة التاريخ، وترنو إلى واقعها وتحلم، محفزة المسافرين إليها على الحلم. يليق الحلم بالمدينة الأنثى وبعشاقها الكثيرين الذين يرتحلون إليها يحدوهم الشوق إلى لقائها. إلى مدينة «الدار البيضاء» مسافر أنا، فهل تقبل بى أنا المحب الذى لا يبتغى من المحبوب غير أن يقبل بى محباً؟ مسافر إلى بلد المحبوب، فهل يدلنى أحد على دار «ثريا» فى مدينة «الدار البيضاء»؟

الحاجز الزجاجى ينفتح عن باب صغير لا يعبره إلا من يمتلك بطاقة الصعود إلى الطائر الحديدى السابح فى الفضاء. تقلنا حافلة إلى أسفل بطن الطائر الذى يبتلعنا فى جوفه ليطير بنا فى الأعالى. أنظر عبر زجاجِ النافذة بجسم الطائر الخرافى إلى نجمة الصباح التى تصحبنى دوما وأصحبها، وأتحدث إليها وتتحدث إلى، محذرة من الأشياء المشتهاة التى تجلب الارتباك إلى القلوب الموسيقية.

أنظر بعين طائرٍ صغير لا حول له ولا قوة، مقيد إلى مقعد ببطن طائر خرافى يحلق عالياً، فاستشعر انسجاماً بين الأرض التى غادرناها وبين السماوات التى تحملنا على أكفها الحانية. أكاد أحس أن العالم قد ساده

السلام والاطمئنان، وأستمع إلى صوت قلبى، فأدهش للحن المرح الصافى يسمو فوق نشاز الرغبة والهوى والضلال.

كل هذا النظام الرائع الذى يسير حركة الكون والكائنات، أكاد أحسه نغمة فاضلة تسبح فى فضاء فاضل، يتردد فيه اللحن المرح الصافى متعدد النغمات. هذه روحى قد أصابها قبس من نور خالص، وهذا قلبى أراه قد أوشك أن يفيض بالموسيقى.

الطائر الخرافى يتابع طيرانه فى اتجاه الغرب الذى تسافر إليه الشمس فى رحلة يومية بديعة، تضفى على الدنيا والناس بهجة الضياء وفرح الألوان. يحملنا الطائر الخرافى ويسافر بنا إلى الغرب، وفق قانون وضعى لبنى البشر، لكنَّ سفر الشمس ذات الإشراق والضياء والوهج، فى رحلة كل يوم، أمر يستعصى فهمه على عقلنا القاصر المحدود، وإن تقبلته أرواحنا فى سرور.

شمس المغرب اجتذبت إليها العديد من الرسامين والمصورين العالميين الذين سافروا إليها، مثل ديلاكروا، ماتيس، بول كلى، كاندينسكى، وآخرين، وكان ديلاكروا أول فنان أوروبى يقتحم محراب فنون الشرق العربى والإسلامى، ويرتشف من صيغه الروحية واللونية. رحلة ديلاكروا الشهيرة إلى المغرب فى عام ١٨٣٢م تعد رمزاً للتفاعل الأوروبى مع الثقافة التشكيلية العربية الإسلامية وللاستلهام منها، وهى الرحلة المغربية التى اعتبرها «أندريه مالرو» فيما بعد نقطة انعطاف فى التصوير الفرنسى، وبداية التحول من الرومانسية الاستشراقية إلى

بدايات الانطباعية.

وفى عامى ١٩١٢ و ١٩١٣م، قام الفنان الفرنسى «ماتيس» برحلتين إلى المغرب التى رسمها فى لوحات، تبدو للناظر إليها وكأن شمس المغرب تشرق من وهج ألوانها. وظلت المغرب وشمسها لا تغادر «ماتيس» حتى بعد سفره إلى باريس، التى عكف فيها على تطوير التخطيطات التى كان قد أنجزها تحت سماء المغرب وشمسها.

الطائر الخرافى يحلق بنا فوق البحر الأبيض المتوسط مخترقاً طبقات السحاب الكثيف. هل الاقتراب الجغرافى بين الشمال الإفريقى والجنوب الأوروبى، خصوصاً بالنسبة إلى دول مثل فرنسا وأسبانيا وإيطاليا قد خلف نوعاً من المزاج البحر متوسطى لدى العرب المغاربة؟.

فى البطاقة التى سلمتها مضيفة الطائرة إلىّ لكى أملأ بياناتها وأحتفظ بها لأسلمها مع جواز سفرى إلى ضابط الجوازات فى الدار البيضاء، أكتب: قادم أنا من مصر قلب الجسد العروبى الواحد. قادم من مصر التى تمثل حضارة ملتقى تمتزج فيها العروبة بالإسلام بالإفريقية بالمتوسطية فى سبيكة واحدة. قادم من مصر التى فتحت ذراعيها لاستقبال المجاهد المغربى «عبدالكريم الخطابى» زعيم ثورة الريف، واحتضن ترابها رفاته.

أكتب فى البطاقة التى سأسلمها لضابط الجوازات فى الدار البيضاء: مسافر أنا إلى المغرب العربى الذى سافرت إليه قبائل من قريش وجهينة وقيس ولخم والأزد وحمير، ثم قبائل بنى سليم وبنى هلال، مسافر إلى

اللغة الأمازيغية التى هى لغة السكان فى بعض الواحات فى الصحراء الغربية المصرية، وإلى الأمازيغيين (البربر) الإضافة الإيجابية للحضارة الإسلامية فى الشمال الأفريقى.

تمر المضيفة أمامى هادئة مزهوة بجمالها الذى تلتقى فيه الطفولة بالأنوثة، وتسألنى: قهوة؟ أجيبها بهزة موافقة من رأسى. أتذكر «ثريا» فتاة الدار البيضاء المرحة صاحبة القلب الموسيقى. فى قاعة الطعام بمعهد البوليتيكنيك فى لندن كانت «ثريا» تعرف ما أريد وأحب، وكنت أعرف ما تحبه وتريده. سوياً شاهدنا حفلات عروض الباليه التى قدمتها فرقة الباليه الملكية على مسرح دار الأوبرا الملكية فى حى كوفنت جاردن فى لندن بمناسبة مرور خمسين عاماً على إنشاء الفرقة. أكثر من مرة لمحت فى ظلام قاعة المسرح بدار الأوبرا دمعة تتسلل من عينى «ثريا». ساءلت نفسى وقتها: هل القلب المضىء يقطر موسيقى ودموعاً؟

أتصفح جريدتى «العلم» و «الصباح» المغربيتين: وأقرأ فيهما محاربة المغرب وأسبانيا للهجرة السرية. الضغوط العنصرية تتصاعد ضد المسلمين فى ألمانيا. الحكومة مدعوة إلى تكثيف البحث العلمى فى قطاع الزيتون لمواجهة تحديات العولمة. انطلاق القناة التليفزيونية الفضائية «المغربية». الأمريكيون يكتشفون المغرب فى فيلم «الإسكندر الأكبر» الذى صورت أغلب مشاهده فى مدينتى مراكش وورزازات. التوأمة بين هوليوود وورزازات زواج سينمائى مغربى أمريكى. المراكز الثقافية

الأجنبيـــة بالمغرب تلعب دوراً محركاً للنشـــاط الثقافى والفنى. المطربة كريمـــة الصقلى تطير إلى باريس بعد غنائها فـــى القاهرة. عبد الوهاب التـــازى عضو أكاديمية المملكة المغربية يعـــين عضواً فى المعهد الإيطالى لإفريقيا والشرق. «الملائكة لا تحلق فوق الدار البيضاء» للعرض بعد أيام فى قاعة سينما «داوليز» بمدينة الدار البيضاء.

الطائرة خفضت من ارتفاعها وتركت طبقات السحاب لتطير بنا فوق مياه المحيط الأطلســـى. قائد الطائرة يعْلِمنا أننا بعد دقائق سنحلق فوق الدار البيضاء. أنظر إلى أســـفل، إلى البحر الـــذى أحبه وأرهبه. البحر مرآة أتأمل نفســـى وروحى فيه. ذلك البحر موغل فى العمق مثل إنسان يصعب سبر أغوار نفسه. الظلمة فى أعماق البحر وفى أعماق النفس.

«الملائكة لا تحلق فـــوق الدار البيضاء».. لماذا اختاره المخرج المغربى «محمد عسلى» عنواناً لفيلمه الذى يلقى القبول والجوائز فى مهرجانات الســـينما؟ هل يعزف فيلم «محمد عســـلى» على الوتر نفسه الذى عزف عليـــه زميله المخرج «نبيـــل عيوش» فى فيلمه «علـــى زاوا» الذى جعل الكثيرين يكتشـــفون الحياة الصعبة لأطفال الشـــوارع المشـــردين الذين يعيشـــون داخل فنـــدق «لينكولن» المهجور فى مدينـــة الدار البيضاء إلى جوار سكان شارع محمد الخامس؟

طائرنـــا الخرافى الذى حملنا فى جوفه وانطلق بنا فى اتجاه الغرب وفاز فى ســـباقه مع الشـــمس، ها هو ذا الآن يحلق فـــوق الدار البيضاء التى تستلقى مسترخية على ساعد المحيط الأطلسى. وها هى ذى شمس

الساعة الثامنة صباحاً التى تركناها فى بدايات البزوغ فى سماء القاهرة، أمامها ساعة كاملة حتى تتعامد أشعتها على سطح مياه المحيط الأطلسى وعلى رءوس الأشهاد فى المدينة الكبيرة البيضاء.

هذا مسجد الحسن الثانى يربض فى خيلاء فوق مياه المحيط، وهذه مئذنته التى ترتفع عالياً فى السماء. أشعة الشمس تنعكس على الرخام الذى يغطى جدرانه الخارجية ألوان قزح. مشهد مسجد الحسن الثانى من أعلى عبر زجاج نافذة الطائرة يوحى للناظر إليه برهبة وجلال.

مسجد الحسن الثانى فى الدار البيضاء الذى أراده العاهل المغربى جامعة لقمة الفنون الإسلامية عبر العصور، افتتح فى ذكرى المولد النبوى الشريف فى عام ١٤١٤ هـ (١٩٩٣م). ذكر فى ذلك الوقت أنه قد تم استلهام عمارة مسجد الحسن الثانى من جامع الكتبية فى مراكش، والقرويين فى فاس، ومن الخير الدا فى أشبيلية، ما يعكس تداخلاً حضارياً يفى بالتعبير عن موقع الدار البيضاء على تقاطع الطرق بين إفريقيا وأوروبا، وما يشهد على براعة الحرفيين المغاربة.

حطت طائرة الخطوط الملكية المغربية على أرض مطار «محمد الخامس» بمدينة الدار البيضاء، لكن موعد لقائى الحميم مع بلد المحبوب سيكون بعد الانتهاء من أعمال مؤتمر اتحادات الكتاب السياحيين العرب والمتوسطى والعالمى الذى يعقد فى مدينة مراكش، التى تقلنا إليها طائرة تابعة للخطوط الداخلية المغربية بعد ساعة واحدة نمضيها فى مطار محمد الخامس الدولى.

الركض وراء شمس مراكش

تسطع الشمس في سماء الدار البيضاء، مخلفة ذلك اللون الحر النقي، الذي يتعفف عن مخالطة ألوان أخرى، والذي يتحرك وحيداً وقوياً وغير منقسم على ذاته، كأنه قلب عاشق محب لم يتغير ولم يتبدل. يتجول اللون الحر النقي في فضاء المكان في حركة مستقيمة أو متكسرة أو مقوسة، مكونة ذلك التشكيل الهندسي والزخرفي، الذي يعانق البصر منذ اللحظة الأولى التي ينظر فيها المسافر إلى حرم عمارة مطار محمد الخامس الدولي.

يمتلئ القلب بمشاعر ود تجاه الأشياء والأحياء من حوله، ويفيض حزناً جميلاً، على شكل قطرة دمع تعرف طريقها جيداً إلى الغائر من خطوط الزمن المرتسم على صفحة الوجه الحزين، الشاهد على خيانة اللون الحر النقي وعلى تبدله وعدم ثباته مع كل تبدل في الضوء والمناخ.

بعد دقائق من تعامد الشمس على الدار البيضاء المغربية، التي لم تفتح لنا أبوابها بعد، تحملنا طائرة الخطوط الجوية الداخلية إلى سماء «مراكش» التي تبعد عن سماء «الدار البيضاء» بحسب سرعة الطائرة بنحو نصف الساعة.

من خلال زجاج النافذة أرى لون مياه المحيط الأطلسي تحت ضوء

شمس الخريف أقل سطوعاً وعنفاً من لون مياه بحر الأسكندرية الأبيض المتوسط تحت ضوء شمس شهر أغسطس الحار الرطب.

تهبط بنا الطائرة فى مطار مراكش. الأحمر الوردى هو اللون المميز للمدينة التى تبدى كل الترحيب بالسائح الأجنبى. وأنا القادم من مصر، محطة المغاربة فى طريقهم إلى الحج، فاتحاً قلبى وذراعى إليك، بماذا تغدقين علىّ يا مراكش؟.

وحدى فى المقعد المجاور للنافذة الزجاجية بالحافلة التى تقلنا من مطار مراكش بزخارفه الحمراء والأرجوانية فى اتجاه فندق الميريديان، أعانق بناظرى الأخضر الداكن الجهير فى الشجر، والوردى الصادح فى عمارة البيوت. يتسلل إلى سمعى صوت آلة الربابة الأمازيغية شقيقة آلة الربابة الصعيدية أنغام موسيقى الدقة المراكشية بايقاعاتها العربية الأفريقية.

طائر أبيض ينطلق من فوق شجرة برتقال فى اتجاه الشمس التى تميل ناحية جبل اصطبغ بلون خد عاشق ارتبك قلبه الموسيقى أمام من يحب ويهوى. بيوت ترتفع قليلاً وتنخفض بعض الشىء كأنها بنيت فوق درجات سلم موسيقى، ونساء من مراكش يرتدين العباءات المطرزة التقليدية ويقدن دراجاتهن البخارية فى طريق عودتهن إلى بيوتهن من أماكن عملهن.

منذ اللحظة الأولى تتسلل مدينة مراكش إلى داخل قلبى كلحن عاطفى لم أفك شفرة إيقاعه بعد. شىء فى صدرى يومئ لى بأن علىّ أن أتخفف

من أثقال روحى أولاً حتى يمكننى التعرف إلى إيقاع نغمة مراكش التى تعرف طريقها جيداً إلى أصحاب القلوب الموسيقية.

أكاد أستشعر فى داخلى شذرات لحن خافت يبدأ فى التخلق، لعله افتتاحية اللقاء بين قلبى الموسيقى وبين قلب مراكش الموسيقى؟. لعل شذرات اللحن الخافت تشير إلى بداية قصة حب تربطنى بمراكش المكان والزمان والبشر والجغرافيا والتاريخ؟.

أخرج إلى فضاء المدينة اللون. إنها الدهشة المشتهاة تتلبسنى وتفتح عينى على آخر اتساعها حتى لا يفوتنى جزء من المشهد، إنها الدهشة المبتغاة تتملكنى، فتتسع لها خطوات ركضى خلف شمس مراكش، وتشتد لها أوتار قلبى وتنضبط على نغمة مراكش الصادحة .

اعزفى لى يا مراكش فقلبى متعطش إلى الألحان، اعزفى لى لحنك الأمازيغى على ربابتك الأمازيغية، شقيقة الربابة الصعيدية فى جنوب مصر، يعزف عليها شعراء الصعيد السيرة الهلالية. وتحدثى إلىَّ يا مراكش بالعربية والأندلسية وإن أردت بالأمازيغية التى يتحدث بها أهلى وناسى فى واحة سيوة المصرية.

ساعدينى يا مراكش على أن أتخفف من أثقال روحى حتى أستمع إلى ندائك العذب لا يسمعه إلا من صفت أرواحهم وسكنت الموسيقى قلوبهم. ساعدينى يا مراكش على أن أتخلص من ذنوبى التى اقترفتها فى المدن الكبيرة ذات الوجه المكشوف والظالم أهلها والتى لا تحلق الملائكة فوق سمائها.

أركــض أنا خلف شمس مراكش الغاربة. لا أعلم من أنا، ولا من أتى بى إلى هنا، ولا أعلم إلى أى اتجاه أقصد. أركض خلفك يا شمس مراكش وأنت فى عز ازدهــارك تُنْهِينَ رحلتك البديعة التى لا تملين من القيام بها فى كل يوم، رحلة الشروق والغروب.

أيــة قصة حب حقيقية مباركة هذه التى تجعلك تســافرين يا شمس مراكــش كل يوم مــن أجل ذلك اللقاء الأبدى الخالــد الجميل هذا الذى تهفو إليه روحى ونفســى. أية قصة حب حقيقية مباركة هذه التى هى أقرب إلى التسبيح باسم الله العلى المتعالى فى الأعالى.

إنــه ســفر إلى الحبيــب المتعالى. تســافر الشــمس إلى الحبيب ومن خلفها تسـير مواكــب الألــوان والأضواء والعطــور والطيــور والقمر، والراكضــين مثلى علــى وقع موســيقى كونيــة، تســتمع إلى نغماتها وتستعذبه الأرواح ذات القلوب الموسيقية، وتطرب إلى إيقاعها النفوس الطاهرة السامية.

لمــن الغلبة، للضوء أو للون فى مراكش؟. أكاد أتصور أن لون مراكش قد حصل على اســتقلاله من هيمنة ضوء شمســها، وأن المرئيات الملونة فــى مراكش يمكــن أن ترى من غير ضوء. لكن تصــورى هذا قد يصطدم بأبحــاث «ابن الهيثم» فى علم البصريات التى تجــزم بأن اللون يرافق الضوء ويلازمه ويتميز به وينتشر معه.

أرى لــون مراكش يتغــير ويصبح مختلفاً مــع كل تغير وتحول فى ضوء شمســها أثنــاء رحلتها البديعــة إلى الغــرب. أرى مراكش امرأة

جميلـة عيناها يتغير لونهما بتغير لون كل ثوب جديد ترتديه يأتيها به عاشقها.

مـن فرط جمال اللحظة العبقرية التى تخشـع الكائنـات أمام بديع ألوانهـا، لم يملك الأبيـض الناصع النقى الذى بات ليلته سـاهراً على قمم جبال الأطلسـى إلا أن يذوب عشقاً وهو يتأمل لقاء الشمس بالجبل واختفاءها وراء الحجب والأستار.

مراكش وقـد ارتدت حلة بلون زهر البنفسـج، رأيتها وهى تخفى وجهها حتى لا يرى محبوبها بعض آلامها. رأيت مراكش وهى تخلع حلة الألوان والضياء التى أرتدتها طوال رحلة شمسـها من شرق المدينة إلى غربهـا لترتـدى أخرى مزينـة بمصابيح كهربائيـة تحجب أكثر مما يمكنها كشفه.

مراكـش المدينـة القديمة الجغرافيـة التاريخية الشـامخة كجبال أطلس، والتى أعارت اسمها للمغرب لفترة فى التاريخ ، وتنازع عليها ملوك، وتعاقبت عليها سـلالات حاكمة، وتحدث عنها رحالة وشعراء وروائيـون فى كتبهم. ها هى ذى مراكش القديمة تسـتعد للنوم مبكراً لكى تسـتيقظ مبكـرا. لكن فى مراكش الحديثة يطول الليل والسـهر، ويتناثـر فى فضائها الداكن - إلا من مئذنة مسـجد الكتبية السـامقة المنيرة - دخان وضحكات لاهية وبعض أسى وحزن غامض.

شـوارع ليـل مراكش التـى تخلو من راكبـى الدراجـات الهوائية والبخارية من الرجال والنساء المرتدين العباءات، بها متسع للسيارات

السـوداء الفارهة التى تشـق طريقها بحرية قاصدة فنـدق «المامونية» الشـهير، قبلة أثرياء العالم مـن الغرب والشـرق، الذين لا يترددون فـى دفع آلاف الدولارات الأمريكية، نظير شـغل غرفة لليلة واحدة، أو فـى دفـع آلاف الدولارات الأمريكية، لقاء دقائـق من المرح تجلبها لهـم مائدة قمار. فى ليل مراكش سـكون مريب لا يأبه كثيراً بأصحاب القلوب الموسـيقية الفقراء من أمثالى، الذين يركضون خلف شمس المدن فـى رحلاتها اليومية البديعة، ولا يأبه بصوت إيقاع الدقة المراكشـية التـى يرقص عليها عربى فى ليلة زفافـه على امرأة أمازيغية جميلة، ولا يأبه بشجن صادر من آلة ربابة أمازيغية صعيدية.

صورة تذكارية للجميلة النائمة

أطفئ لون الكهرباء فى غرفتى بالدور الثانى بالفندق، مكتفيا بنثار ضوء تخلل شجرة برتقال تمد أغصانها إلىّ وأنا واقف فى الشرفة. أنظر فى السماء وأرسم على مسطح لوحتها الداكن - إلا من وميض هلال ونجوم - رسومات بالأبيض الناصع لملائكة بوجوه أطفال تحلق فوق مراكش. وأنا أشم عبير البرتقال فى هواء الشرفة، يردد قلبى فى خفوت لحن مراكش متعددة النغمات، ويخفق لنغمة جواب فى أعلى السلم الموسيقى آتية من وتر ربابة قديمة بثها لواعج قلبه الموسيقى صعيدى أسند ظهره إلى جدار ذى نقوش بمعبد الأقصر.

الحيرة تتملكنى، فأنا لم أحدد لون مراكش بعد، ولم تتضح لى معالم لحنها الصادح والجهير. تقع عيناى داخل الحديقة أسفل الشرفة على وردة جاءت مع قوافل عربية انطلقت من الشام ومصر وجزيرة العرب منذ قرون فى اتجاه واحة بمنطقة «ورزازات» القريبة. ظلال الزخارف الهندسية والنباتية والأقواس والخطوط فى العمارة من حولى، تتسلق أغصان شجر البرتقال، وتحط على النجيل الأخضر، وتعانق بريق الفسيفساء والرخام فى نافورة تعكس مياهها الساكنة نور الهلال.

صوت جرس الهاتف يوقظنى. أشكر موظف الاستقبال بالفندق، وأنظر إلى ساعتى فأجدها تشير إلى الخامسة صباحاً. أخرج إلى الشرفة

لأشم نسيم الصباح الممزوج بعبير البرتقال، لكننى أعود متعجلاً لارتداء ملابسى والذهاب لأكون فى استقبال قافلة النور.

وحيد أنا أمام جلال المشـــهد فى غموضـــه المثير من حولى. أنصت إلى الصمت وأنظر فى السماء العالية، فأستشعر كأن حزمة ضوء ونغم أشرقت فى قلبى. إحســـاس جميل عذب تصفو له نفسى وتستعذبه روحى، وأنا أقف وحدى أمام جلال المشهد المثير فى غموضه من حولى.

أســير فى فضاء الجمال النائم للمدينة على غير هدى. مئذنة مسجد الكتبية العالية المنيرة تنادى علىّ فألبى النداء. أسير فى الشارع الطويل الممتد المحفوف بالأشـــجار والزهور، ومقاعد رخامية خالية، وأضواء القناديـــل ، ووميـــض غامض نازل من هلال ونجوم فـــى الأعالى. قارب صـــوت المؤذن بمســـجد الكتبية على الانتهاء مـــن الأذان لصلاة الفجر، فأسرع من خطواتى فى اتجاه المئذنة. أقرأ السلام على عجوز يسير على مهل مرتديا عباءته التى تنتهى بغطاء يغطى رأســـه، فيقرئنى السلام وعيناه تســـتغربان من خطواتى المتعجلة وأنفاســـى اللاهثة فى لحظات ربما لا يليق بها الاستعجال واللهاث.

إلى يمينى فندق المامونية الباذخ تحوطه هالة من الأسرار، وإلى اليسار حديقة الأميرة «للاحسناء» باســـقة وجميلة. وعند كل زاوية ومنعطف تنتصب وحيدة ماكينات الهواتف الآلية التى تعمل بالبطاقات الممغنطة وقد صمتت عن الكلام. أنهى صوت المؤذن الأذان لصلاة الفجر فى اللحظة التى تبدت لى فيها جدران مسجد الكتبية. أسرع من خطواتى وأنا أعرج

إلى ناحية اليسار مع سور حديقة الأميرة «للاحسناء». فى ارتياب ينظر فى اتجاهى عجوز يمسك بيده اليمنى مفتاحا يدخله فى بوابة الحديقة ويغلقها من خلفه. أدور حول مسجد الكتبية باحثاً عن باب يدخلنى إلى الصحن الذى تقام فيه الصلاة. أخلع نعلى وأدخل من باب موارب لأقف فى الصف وأصلى لله صلاة الفجر.

أخرج من باب المسجد وقلبى يصدر ابتهالات وأناشيد تشيع فى روحى غبطة وفرحاً. أنظر فى السماء باحثاً عن بصيص ضوء يدلنى على الاتجاه الذى تأتى منه الشمس فى رحلتها اليومية البديعة من الشرق إلى الغرب. شىء فى صدرى أشبه ببوصلة تنير لى الطريق الموصل إلى مكان اللقاء الذى أتعجله وأتوق إليه.

على وقع صياح الديك فى وقت السحر، تتجلى لى مراكش القديمة بمدارسها ومقاهيها وزنقاتها. مدرسة يوسف بن تاشفين، مدرسة ابن البناء المراكشى، مدرسة ابن طفيل، زنقة الموحدين، زنقة ابن خلدون، مقاهى تفتح أبوابها وتنشر مقاعدها وطاولاتها وتشعل النار فى قدور الماء ومواقد الفحم. أتوقف للحظات أمام المشهد الطالع من صفحات تاريخ المدن العربية القديمة، ربما لأضبط عدسة الكاميرا فى ذاكرتى وألتقط صورة فوتوغرافية لمدينة مراكش القديمة البهية.

قط صغير أبيض جميل يسير فى حذر وبطء إلى جانب الرصيف يتطلع إلىّ فى تساؤل واستغراب. كلب ضال وحيد يتعثر فى ضعفه ووحدته وحزنه. عامل نظافة يمسك بمكنسته التى تترك من قمامة

الأرض أكثر مما تزيل. دراجات هوائية تحمل عمال بناء واسطوات ورش نجارة وحدادة وأثاث وبقالين وميكوجية وعمال مطاعم إلى مواقع عملهم. عربات نقل صغيرة تحمل الخُضْر والفاكهة لتقوم بتوزيعها على الدكاكين. عربات كارو تحمل أجولة القمامة. مدرسون وموظفون صغار يقفون أمام محطة الحافلات التى توصلهم إلى أعمالهم فى ضواحى وقرى مراكش المتاخمة لجبال أطلس. دراجات بخارية تقودها سيدات مراكشيات فى طريقهن إلى وظائفهن. شاحنات صغيرة تحمل زهور الجبل وورود الواحة والوادى إلى محال بيع الورد لتوزعها على الفنادق والقصور والفيللات.

هؤلاء هم أهل مراكش وشرفاؤها فى خروجهم المبارك مع الخيوط الأولى للفجر، يشعلون الحركة والنشاط فى دولاب العمل اليومى، ويبذلون الجهد والعرق لكى تستمر دورة الحياة. إنهم أفراد الشعب الطيب البسيط مصدر كل السلطات فى كل زمان ومكان.

أنظر فى السماء وأوجه خطواتى الراكضة فى الاتجاه الأقل عتمة والأكثر ضياء. تحجب البيوت والبنايات عنى السماء الشاسعة وجبال أطلس الممتدة فى شموخ ، فأغذو السير والركض فى الشوارع الفسيحة التى لا تعوقنى عن النظر فى السماء والتعرف إلى مكان اللقاء الذى يجمعنى مع الشمس فى لحظات الطلوع والبزوغ الأولى.

أمضيت وقتاً فى محاولات الخروج من أسر الشوارع الضيقة والبيوت المتلاحقة التى تحجب عنى السماء التى بدأت أستار العتمة ترتفع عنها

شيئا فشيئا . فهل أرجأت الشمس لحظة طلوعها المبارك من أجلى حتى أكون فى استقبالها؟.

قافلة الشمس برياتها الحمراء البرتقالية وأعلامها الزرقاء والأرجوانية والرمادية، تطل من فوق الأبيض النقى الذى يستأذن الرحيل من فوق قمم جبال أطلس البعيدة الشاهقة هناك. المشهد من حولى مفعم بالألوان والضياء والأناشيد. جبال أطلس الرمادية البيضاء تضئ بالنور الساطع وترتدى حللاً زاهية ملونة بهيجة تتغير ألوانها مع حركة طلوع الشمس ومع مهرجان الضياء. نسائم الصباح الوليد معطرة بعبير البرتقال ورائحة ورود «ورزازات» وأغصان الشجر وسيقان النبات تستحم بالندى والألوان. كتلة الوهج الحمراء القانية تشرق شيئاً فشيئاً وتسفر عن وجهها المضىء المنير، فتنشرح لها صدور الكائنات وتستقبله بالابتهالات والأناشيد.

وحدى أنا أمام جلال المشهد، تطفر (تقفز) الدموع من عينى، فلا أملك إلا أن أخرج من جيبى ورقة بيضاء وقلماً أخط به رسماً تخطيطياً للمنظر الطبيعى الفاتن ، لعلنى أصوره بفرشاة الألوان على لوحة بيضاء مثبتة فى حامل خشبى فى غرفة مكتبى بمنزل فى منطقة أهرامات الجيزة فى مصر.

أنظر خلفى فأجد صف بنايات نوافذها الخالية من البشر تفتح على مشهد بداية رحلة الشمس اليومية البديعة، فأغبط قاطنيها وأدعو لهم بأن يفتح الله بصائرهم وقلوبهم للتمتع بالمنظر الطبيعى البهيج. وقلبى

مفعم بالموسيقى والأناشيد، أرقب قرص الشمس يتابع رحلته فى دقة ونظام، فأجدنى أرفع يدى مودعاً لأعود وأدخل نفسى فى سياق برنامج رحلتى إلى المغرب.

أقرأ فى صحف المغرب المجهولة لنا فى ربوع المشرق العربى عن سيرة رجل كرمته مراكش قبل قدومى إلى المغرب بأيام قليلة، هو المقاوم «الهاشمى الطود» الرجل الذى قاد حلمه الثورى إلى القاهرة فى رحلة سيراً على الأقدام استمرت ثلاثة أشهر، والذى حاز على ثقة عبد الكريم الخطابى زعيم ثورة الريف أثناء وجوده بالقاهرة، والذى قاتل بفلسطين عام ١٩٤٨ قبل وصول الجيوش العربية، ودرب الآلاف من المتطوعين المغاربة، وأشرف على تأسيس القيادة الموحدة لجيش تحرير المغرب العربى، حتى إن مقاومين تونسيين فكروا فى منحه رئاسة تونس بعد الاستقلال.

«إعلان مراكش» - حديث الصحافة المغربية - أطلق على البيان الختامى للندوة العربية الأفريقية لمتابعة القمة العالمية حول مجتمع الإعلام المزمع إقامتها فى تونس، الذى اعتبر المشاركون فيه أن حرية التعبير والصحافة يتعين أن تشكل حجر الزاوية فى بناء مجتمع الإعلام بأفريقيا وفى المنطقة العربية وباقى أنحاء العالم. جدد إعلان مراكش التأكيد على مبادئ إعلان ويندهوك «١٩٩١» وصنعاء «١٩٩٦» حول النهوض بوسائل الإعلام المستقلة ومتعددة الاتجاهات فى أفريقيا والدول العربية. كما شدد إعلان مراكش على ضرورة تحول وسائل

الإعلام السمعية والبصرية التى توجد تحت مراقبة الدولة إلى إذاعات وتليفزيونات تتمتع بالاستقلالية وتمنح الصحفيين الاستقلالية المهنية. وأشار إعلان مراكش إلى أن النزاعات المرتبطة بمؤسسات الإعلام والعاملين بها أثناء ممارستهم لمهامهم يجب أن تعرض أمام قضاء مستقل.

أشارت صحف مغربية إلى الترتيبات الإدارية والسياسية التى بدأت بين المغرب ومصر لنقل رفات زعيم ثورة الريف «عبد الكريم الخطابى» من القاهرة إلى أغادير مسقط رأسه. وتندرج الإجراءات حسب نشطاء فى حقوق الإنسان فى نطاق طى نهائى للملف. كما ألمحت الصحف المغربية أيضا إلى أن هيئة الإنصاف والمصالحة التى يرأسها المعتقل السابق «إدريس بن ذكرى» شرعت فى الاستماع إلى إفادات زعماء سياسيين حول انتهاكات حقوق الإنسان.